الباب الثالث

فلاسفة التاريخ

- الفصل الأول : ڤيكو .
- الفصل الثانى: كوندرسيه .
- الفصل الثالث: هيجل .

الفصل الأول

فيكو

- تمهيد .
- حياته وأعماله .
- العلم الجديد.
- قانون تطور الأمم .

- تمهيد :

يُعَد " جامبا تيستا ڤيكو" المؤسس الحقيقى لـ " فلسفة التاريخ " فى العصر الحديث، فقد احتل مكانة متميزة فى التراث الغربى تماثل مكانة "ابن خلدون " فى التراث العربى. والحق أن " ڤيكو " لم يُكتشف - كفيلسوف للتاريخ - اكتشافاً حقيقياً إلا عندما تُرجمت بعض أجزاء كتابة العظيم " العلم الجديد " New Science إلى اللغة الألمانية لأول مرة عام 1822 ثم عام 1825، حيث التفت إليه أبناء بلده بعد أن أغفلوه طويلاً، خاصَّة مع حركة البعث القومى الإيطالى؛ إلى أن جاء فيلسوف إيطاليا الأكبر فى النصف الأول من القرن العشرين وهو " كروتشه "[1] فأحيا فكره من جديد وأفرد له كتاباً مستقلاً.

وكتابه " العلم الجديد" عن الطبيعة المشتركة للشعوب، هو فى جوهره محاولة لوضع مذهب تاريخى شامخ، لا هو مجرد تصنيف تأريخى، ولا هو مجرد إدراج للمعرفة التاريخية تحت التاريخ الدينى المقدس، وإنما هو صورة لـ " تاريخ " مثالى خالد يسير طبقاً له تواريخ كل الشعوب فى الزمان. ومهمة هذا العلم أن يعرف الشعوب فى أصولها وتقدمها وازدهارها وسقوطها، وأن يتتبع المسار التاريخى من البربرية إلى المدنية؛ والمهم أن ينظر إلى "التاريخ " على أنه " تاريخ " الإنسان و "تاريخ " عقلنا البشرى [2].

ولا نستطيع القول بأن تأثير " ڤيكو " فى عصره كان تأثيراً عميقاً. فقد عاش مجهولاً خارج إيطاليا حتى القرن التاسع عشر، كما لقي التجاهل فى إيطاليا نفسها، بل لقد جحدته بلدته ومسقط رأسه فتجاهله كل من أهدى لهم العلم الجديد؛ وكأنه كان يدفع الثمن الذى لابد أن يدفعه كل رائد يسبق عصره. ولا عجب أن يكون مثل هذا المفكر رائداً لكثير من الآراء الجريئة التى

قـدمها بعـض المفكـرين المتـأخرين الـذين فـاقوه شـهرة. كتـب " بـول هـازار " يقـول: " ينبغى الإعجـاب بهـذا البطل من أبطـال الفكـر، هـذا العبقـرى المبـدع، هـذا الرجـل الـذى كـان مـن الممكـن أن يمـنح نهـر العـصر مجـرى جديـداً. عبثـاً حـاول " ڤـيكو " أن يتجـه إلى العلمـاء وإلى مواطنيـه النـابوليين، ولكـن أوروبـا بقيـت صـماء - وأولهـا إيطاليـا - لم تـسمع هـذه الـدعوة ولم تقبـل إلا فيمـا بعـد فقـط. أمـا فـى آونهـا فقـد ظلـت بـلا صـدى، لأن هـذا المجـدد لم يكـن لـه تلاميـذ، ولأن فكره كـان بلا عمل؛ بل إن عشيرته نفسها لم تكن لتستجيب له " (3).

* * *

حياته وأعماله

ولد " ڤيكو " فى نابولى فى 23 يونيو عام 1668، وكان أبوه بائعاً صغيراً للكتب نزح إلى نابولى عام 1656، وكانت أمه ابنة صانع عربات كما كانت هى الزوجة الثانية لأبيه. التحق " ڤيكو " فى سن مبكرة بمدرسة الآباء اليسوعيين وفيها درس اللغات القديمة، وخاصة اللاتينية وبعض اليونانية، كما درس الأدب والبلاغة والفلسفة والمنطق واللاهوت والتشريع. انشغل بالقانون الرومانى والقانون الكنسى واضطره الفقر إلى الاشتغال بالمرافعات القضائية فى ساحات المحاكم. وفى ذلك الوقت تدهورت صحة " ڤيكو " وقلت موارد أسرته، واشتعلت فيه رغبة التفرغ للدراسة فكانت فرصة سانحة عندما عرض عليه أحد الأساقفة من عائلة روكا Rocca أن يعمل مدرساً لابن أخيه فى قلعة Cilento فى فاتولا (وهى تتميز بالموقع الجميل والمناخ الصحى الذى أفاد صحة ڤيكو كثيراً). عاش فى هذه القلعة لمدة تسع سنوات ووجد الفراغ الكافى للدراسة فعكف على دراسة القانون الطبيعى للشعوب، وبدأ بأصول القانون الرومانى والقانون المدنى، ودرس اللغة اللاتينية وبدأ بمؤلفات شيشرون ثم الشعراء اللاتين مثل: " فيرجيل" Virgil (70 - 19 B.C) و"هوراس " Horatius (B.C 8-65) [(4)].

عانى " ڤيكو " كثيراً من الفقر والأزمات المالية وكان أجره زهيداً متواضعاً، فظل يأمل فى تحسين أحواله المادية. وتقدم عام 1717 لمسابقة أكاديمية للفوز بمنصب كرسى القانون المدنى الذى كان شاغراً ولكنه أخفق، ولم يكن إخفاقه فى الفوز بهذا الكرسى لسبب يتصل بكفاءته العلمية؛ بل

كان راجعاً لعدم معرفته بلعبة السياسة الأكاديمية التى لم يفكر فى خوضها. ولهذا عكف على بحث فى " القانون المدنى " تحت اسم " القانون العالمى " وجعل شعاره عبارة مشهورة من كتاب " القوانين " لـ " شيشرون" : " إن علم القانون ليس مستمداً من قرارات إدارية كما يعتقد بعض الناس، ولا من قانون الألواح الاثنى عشر، كما اعتقد البعض قديماً؛ ولكنه مستمد من أعمق أعماق الفلسفة ". أصدر " ڤيكو " مؤلفه " القانون العالمى " فى ثلاثة أجزاء، ظهر الجزء الأول عام 1720، والثانى عام 1721 والثالث عام 1722، وكان أحد فصول هذا الكتاب بعنوان: " محاولة عن العلم الجديد". وتقدم - بهذا الكتاب - للمسابقة ولكنه أخفق للمرة الثانية [5].

وبعد أن كان " العلم الجديد " فصلاً فى الجزء الأول من كتابه " القانون العالمى "، أفرد له " ڤيكو " مؤلفاً خاصاً وآمن - فى هذه الفترة - بأن العناية الإلهية وحدها هى التى هدته إلى هذا الكشف الجديد. وعكف على هذا الكتاب وبذل أقصى جهده حتى انتهى من الجزء الأكبر من " العلم الجديد" فى أواخر عام 1724، وأطلق عليه اسم " العلم الجديد فى صورته السلبية " وفيه انتقد أصحاب نظريات القانون الطبيعى، أمثال: "جروسيوس" Jrosios (1583 - 1645) [6] و" سيلدن " Selden (1584 - 1654) و"بافندروف " Paffendorf (1632 - 1694)، والمذاهب النفعية للرواقيين والأبيقوريين. كما وجه نقده لـ "هوبز" و"اسبينوزا " Spinoza (1632 - 1677) و"لوك " Locke (1632 - 1704). وأعاد " ڤيكو " صياغة الكتاب على أساس منهج إيجابى، فكانت الطبعة الأولى بعنوان: " مبادئ العلم الجديد الخاص بالطبيعة المشتركة بين الأمم والذى يسمح باكتشاف مبادئ نسق آخر للقانون الطبيعى للشعوب ".

Principles of New Science of Giambattista vico concerning the common Nature of the Nations by which are found the principles of another System of the Natural Law of the Gens.[7]

وفى عام 1725 وبعد نشر الطبعة الأولى من " العلم الجديد"، كتب " ڤيكو " سيرته الذاتية [8] وهى سيرة طريفة يروى فيها تفاصيل مشوقة عن مراحل تطوره العقلى والجهود المضنية التى بذلها لإخراج كتابه العظيم " العلم الجديد ". غير أن هذا العلم المبدع لم يلق من أبناء عصره إلا التجاهل والجحود، ولم يمر عام 1728 إلا وأتم " ڤيكو " هذه السيرة التى لم تكن من قبيل السير الذاتية الأدبية، بل تميزت بطابع تعليمى يجعلها قدوة لطلاب المدارس وناشئة الباحثين. وانصرف فى آخر سنوات عمره إلى كتابة إضافات لسيرته الذاتية وأيضاً إضافات وتعديلات لكتابه الأساسى " العلم الجديد " وانتهى منها عام 1743، ولكن توفى " ڤيكو " فى يناير 1744 قبل أن يشهد الطبعة الثالثة لعلمه الجديد الذى كان الهدف الأوحد لحياة مؤلفه.

* * *

العلم الجديد

تتركز فلسفة " ڤيكو " فى أهم مؤلفاته " العلم الجديد "[9] ويتناول القسم الأول منه الجانب النظرى من العلم الجديد، ويتضمن ثلاثة موضوعات رئيسية: " الأصول" و" المبادئ " و" المنهج ". وتحوى " الأصول "[10] مجموعة من المسلمات أو البديهيات، يلتزم بها الباحث أو يفترضها عند دراسته تاريخ تطور الشعوب بصفة عامة والقديمة بصفة خاصة؛ فهى القواعد التى يجب أن يقوم عليها هيكل البناء التاريخى. لقد حاول " ڤيكو " وضع " الأصول " متشبهاً - من الناحية الشكلية - بطريقة إقليدس فى وضع أصول " علم الهندسة "، وقدم مجموعة من المسلمات الفلسفية واللغوية يبلغ عددها مائة وأربع عشرة مسلمة تنطوى على مجموعة من المصادرات والتعريفات، وعلى الرغم من كثرة المسلمات وتنوعها إلا أنها تتناول بعض الأفكار الهامة التى تدور حولها فلسفة بأكملها مثل: أن الإنسان هو صانع تاريخه وأنه لا يستطيع أن يعرف إلا ما يصنعه بنفسه، بمعنى أنه يعرف حقائق الأشياء عندما يشارك فى صنعها بنفسه بحيث تصبح قابلة للمعرفة [11].

أما " المبادئ "[12] فهى التى اكتشفها العلم الجديد فى كل المجتمعات البشرية وتتمثل فى: " الدين " و" الزواج" و"دفن الموتى ". تتبع " ڤيكو " أصول النظم الاجتماعية للأمم وردها إلى هذه المبادئ الثلاثة، وحاول أن يبين أن بقاء الحضارة متضمن فيها أو نابع منها؛ ثم استخرج من هذه النظم الثلاثة سائر النظم الحضارية المتطورة. لقد لاحظ أن كل الشعوب - بربرية كانت أم مدنية - لها عادات بشرية ثابتة بالرغم من تباعدها فى المكان والزمان، فهى

جميعاً تتفق على ديانة ما، وهى بلا استثناء تحتفل بطقوس الزواج وتدفن موتاها. وحتى الشعوب الموغلة فى التوحش نجد لديها الأفعال البشرية التى تحتفى بها وتصاحبها طقوس مقدسة مثل شعائر الدين والزواج ودفن الموتى. لذلك اتخذ " ڤيكو " من هذه العادات الثلاثة مبادئ أساسية لعلمه الجديد واعتبرها الأصل فى الحس المشترك بين الشعوب (13).

ويؤكد الباحثون أن أهمية " ڤيكو " ترجع إلى " المنهج "(14) أكثر مما ترجع إلى المذهب، فقد حدد القواعد التى يجب اتباعها لدراسة أصول التنظيمات الاجتماعية البشرية. وهو إذا كان عارض المنهج الرياضى عند " ديكارت "(15) Descartes (1596 - 1650) إلا أنه لم يرفضه لذاته ولكن رفض تطبيقه فى مجال " التاريخ "، وحدد منهج علم " التاريخ " بالنسبة لمنهجى الرياضيات والعلوم الطبيعية. ولم يكن تحديد " ڤيكو " لمنهج علم " التاريخ " وموضوعه وليد نظرة نقدية لمناهج وموضوعات العلوم الأخرى فحسب، بل أسهمت عدة علوم فى تشكيل هذا المنهج أهمها: دراسته لـ" اللغة " ؛ فالتعرف على طريقة تفكير شعب ما وأسلوب حياته يستلزم دراسة اللغة وتتبع التطور الذى طرأ عليها خلال عصور " التاريخ ".

* * *

قانون تطور الأمم

يعرض " ڤيكو " فى كتابه الضخم " العلم الجديد " للقانون الذى يحكم تطور الشعوب، فالأمم فى تطورها تتقدم وترتقى من الهمجية إلى المدنية، ثم تنتقل إلى الخضوع للقوانين والحكومات؛ حتى تصل إلى مرحلة التعامل الإنسانى فى حياة اجتماعية منظمة. وكل الشعوب تمر بالتاريخ المثالى الأبدى فى نشأتها وتطورها ونضجها ثم تدهورها وسقوطها. هذه الدورة التاريخية التى تمر بها كل أمة تتعاقب فى مراحل ثلاث، وهذه المراحل هى القانون الذى انتهى إليه " ڤيكو " واستقاه من التاريخ المصرى القديم. كما اعترف بذلك فى أكثر من موضع، بل اعتبر هذا القانون - الذى وضعه المصريون [16] لشرح تاريخ العالم قبلهم - بديهية من بديهيات العقل التى يجب التسليم بها منذ البداية؛ ومجمل هذه المسلمة: إن تاريخ البشرية يمر بثلاث مراحل رئيسية هى: " المرحلة الإلهية "، و" المرحلة البطولية "، ثم " المرحلة البشرية " [17].

المرحلة الإلهية تتصف بالتأليه واعتبار كل ما فى العالم ملكاً للآلهة، والحكومة نفسها إلهية لها إرادة آمرة ناهية، وهى تختار من يمثلها على الأرض؛ وقد كان الحكم الاستبدادى فيها بيد الكهنة الذين يمثلون رجال الدين ويدعون أنهم يحكمون بمقتضى قوانين إلهية يتلقونها عن طريق النبؤات والتكهنات. وفى هذا العصر الإلهى سيطرت الخرافة والأساطير على الفكر، وساد الخوف الذى كان الدافع الأول للإنسان لتصوره للآلهة عن طريق المخيلة. وكانت اللغة السائدة - فى هذا العصر - لغة رمزية سرية كـ " اللغة

الهيروغليفية " لغة صامتة خرساء. وتتم بها الطقوس ويطلقون عليها اللغة السرية المقدسة. هذه اللغة الرمزية استعملتها كل الشعوب في بداية تاريخها، إذ كان الناس يفكرون بمفاهيم عامة أو كليات خيالية أملتها بالفطرة طبيعة العقل البشرى التى تميل إلى كل ما فيه وحدة واضطراد (18).

أما المرحلة البطولية فهى مرحلة أنصاف الآلهة من البشر الذين يزعمون أنهم ينحدرون من أصل إلهى ليُنظر إليهم نظرة التقديس والتأليه. وقد خطت البشرية - فى هذا العصر البطولى - خطوة إلى الأمام فتحررت من استعباد الآلهة وانتقلت إلى استعباد الإنسان لغيره من بنى جنسه. أما اللغة فكانت لغة شعرية تتغنى بالبطولة والشجاعة التى اتسم بها العصر كله. وتصاحب هذه اللغة الشعرية حروف أو رموز بطولية هى كليات متخيلة ترد إليها الأنواع المختلفة للأشياء البطولية، مثلما نُسب إلى " أخيل "(19) كل أفعال الشجاعة، ولـ " أوديسيوس "(20) كل حيل البشر فى المهارة والبراعة والمكر. وقد أصبحت هذه الأجناس الخيالية - بعد أن تعلم العقل البشرى كيف يجرد الأشكال والخصائص من الموضوعات - أجناساً عقلية مهدت الطريق للفلاسفة وللتفكير الفلسفى.

وأخيراً تأتى المرحلة البشرية فنجد المساواة فى الحقوق أمام القانون وحصول كل إنسان على حقوقه الطبيعية المشروعة فى ظل حكومات ديمقراطية شعبية حققت المساواة بين طبقة النبلاء وطبقة العامة واعترفت بحق هذه الطبقة الأخيرة فى المشاركة فى نظام الحكم، وكانت اللغة - فى هذا العصر الأخير - لغة شعبية غلب عليها النثر؛ أى لغة الحديث المنطوق الذى تستعمله كل الشعوب الآن كما هى لغة الرسائل والحياة اليومية (21).

وهذه الدورات الثلاث للتاريخ يقابلها ثلاث مراحل تشريعية بدأت

بالقوانين الإلهية التى سادت فى عصر الأسر حيث سيطر الاعتقاد بأن الملكية هى ملكية الآلهة. والسلطة البطولية تعتمد على قوانين لها جلالها، وقد ساد هذا فى عصر الأرستقراطيات البطولية التى تجسدت فيها السلطة فى المجالس التشريعية الحاكمة. أما السلطة البشرية فتعتمد على ثقة الشعوب فى أصحاب الخبرة وذوى البصيرة، وقد ساد هذا فى عصر الديمقراطية الشعبية عندما أصبحت سلطة مجلس الشيوخ بمثابة حارس للقوانين، وأصبح الشعب هو المُشرع الحقيقى للقوانين؛ واقتصرت سلطة المجالس على إصدار هذه القوانين وصياغتها فى صورة رسمية (22).

هذا باختصار قانون تطور الشعوب، ولقد قام " ڤيكو " بالتدليل على صدقه فى كل ما يتعلق بحياة الشعوب والطبائع الثلاث التى تسودها وما يتبعها من عادات ثلاث. وبفضل هذه العادات تلاحظ ثلاثة أنواع مختلفة من القانون الطبيعى للشعوب وما يتبع هذا القانون من تنظيم المراحل المدنية، فكانت الحكومات الثلاثة وما يقابلها من لغات ثلاث، وتشكلت ثلاثة أنواع من الرموز؛ كما كانت هناك ثلاثة أنواع من التشريع والسلطة والعقل والأحكام.

* * *